علاقة مصر بالحبشة فى عصر سلاطين المماليك

(١٢٥٠ ـ ١٥١٧ م)

دكتور قاسم عبده قاسم

كانت مصر فى عصر سلاطين المماليك (١٢٥٠ ـ ١٥١٧ م) قوة عالمية عظمى ، كما كانت هى القوة الكبرى فى أفريقيا وعالم البحر الأحمر ومن ناحية اخرى ، كان البحر الأحمر فى ذلك الزمان بحيرة عربية اسلامية تسيطر عليها الأساطيل المصرية ، وتحرم على سفن غير المسلمين دخوله لأسباب سياسية واقتصادية ودينية وأمنية(١) . وكانت مصر منذ منتصف القرن الثالث عشر الميلادى قد اولت اهتماما متزايدا للبحر الأحمر باعتبارها حامية الحرمين الشريفين فى الحجاز من ناحية ، وبسبب ارباحها من التجارة العالمية المارة بهذا البحر من ناحية ثانية ، ثم اهتمامها بأحوال المسلمين فى شرق افريقيا من ناحية ثالثة فضلا عن اهتمامها التقليدى بأمنها الذى يشكل البحر الأحمر محورا هاما من محاوره .

وعلى الجانب الآخر كانت الحبشة تلعب دور القوة المسيحية الكبرى فى شرق القارة السمراء(٢) وعالم البحر الأحمر أيضا ، كما كانت مصالحها

---

(١) عرف البحر الأحمر فى المصادر التاريخية العربية باسم « بحر القلزم » أو « بحر الحجاز » المقريزى ، الخطط ، جـ ١ ، ص ١٥ ، ص ٢١٢ ، ص ٣٤١ ، القلقشندى ، صبح الأعشى ، جـ ٥ ، ص ٦ .

(٢) كانت الحبشة آنذاك تمتد من حدود امبراطورية مالى فى غرب أفريقيا ، ويتضح من كلام المقريزى والقلقشندى أنها كانت تضم الى جانب الحبشة الحالية ، أقاليم دارفور وبحر الغزال والنيل الأبيض فى السودان الحالى ، فضلا عن سيادتها على مناطق شرق أفريقيا التى عرفت باسم « الطراز الاسلامى » ـ انظر :

المقريزى ، الالمام بأخبار من بأرض الحبشة من ملوك الاسلام ، ص ، القلقشندى ، صبح الأعشى ، جـ ٥ ، ص ٣٠٢ ـ ٣٢٨ .

Ziada, M. M., Forlign Relations of Egypt in the 15bh century (Liverpoole 1930), p. 114.

السياسية والاقتصادية والدينية تفرض عليها أن تمد خيوط علاقاتها لتلتقى مع خيوط المصالح المصرية ، فوق مياه البحر الأحمر ، وعلى تراب القـــارة الســـمراء .

وهكذا كانت علاقة مصر بالحبشة فى عصر سلاطين المماليك محكومة بحقائق الجغرافيا ، وتوجهات السياسة ، وخبرة التاريخ ، فضلا عن المصالح الاقتصادية والروابط الدينية . ومن نافلة القول أن ننبه الى أن هذه كلهـــا لم تكن من نتاج العصر الذى نهتم بدراسته وانما كانت نتاجا لتراكمات تاريخية فرضتها حقائق الموقع والمجال الحيوى لكل من مصر والحبشة آنذاك .

لقد فرضت الظروف والأحداث التاريخية التى شهدتها المنطقة فى منتصف القرن الثالث عشر أن تقوم مصر بدور القوة الضاربة المدافعة عن العالم الاسلامى وعن الحضارة العربية الاسلامية(٣) . أما الحبشة ، فقد سيطرت سياسيا على جزء من ساحل أفريقيا الشرقى الذى قامت على ترابه عدة امارات ودويلات عرفها مؤرخو ذلك الزمان باسم «الطراز الاسلامى»(٤) . كما أن نجاشى الحبشة — الذى عرفته مصادر عصر سلاطين المماليك باسم الحطى — كان يعتبر نفسه مسئولا عن حماية الأقباط فى مصر . وقد تدخل لصالحهم أكثر من مرة كما سنرى فى هذه الدراسة .

بيد أن المصالح التجارية لعبت هى الأخرى دورا هاما فى تحديد مسار العلاقات بين مصر والحبشة فى عصر سلاطين المماليك ، اذ كانت امارات « الطراز الاسلامى » ، ولا سيما امارة « أوفات » ، تتحكم فى الطـــريق

---

(٣) قامت دولة سلاطين المماليك نتيجة لهزيمة حملة لويس التاسع على مصر فى منتصف القرن الثالث عشر ، ثم تدعم وجودها نتيجة للانتصار على المغول فى معركة عين جالوت بعد ذلك بعشر سنوات . ومنذ ذلك الحين بدأت تفرض سيادتها على المنطقة العربية لقتال الصليبيين ثم اكتسبت مكانتها بعد احياء الخلافة العباسية فى القاهرة .

(٤) قال القلقشندى (صبح الأعشى ، ج ٥ ، ص ٣٢٤) انها فى الطرف الجنوبى للبحر الأحمر وما يتصل به من بحر الهند (وهى ما يعرف حاليـــا باسم « القرن الافرينى ») ، ويعبر عنها بالطراز الاسلامى لأنها على جانب البحر كالطراز له . وهى سبع امارات : وفات (أوفات) وهى جبرة التى ينسب اليها الجبرتى ، وزيلع ، ودوارو ، وأرابينى ، هدية ، شرحا ، بالى ، ثم دارة .

التجارى الذى كان يربط داخل الحبشة بميناء زيلع على البحر الأحمر . وقد أدى هذا الموقف الى تعاظم ثروة امارات الطراز الاسلامى بحيث أسالت لعاب الطمع فى الحبشة المسيحية . من ناحية أخرى ، كانت لمصر مصالح تجارية حيوية فى هذا الجزء من افريقيا . كما لفتت انظارها ومشاعرها تلك الحملات العنيفة التى بدأ الأحباش المسيحيون يشنونها على المسلمين فى شرق افريقيا منذ منتصف القرن الثالث عشر الميلادى .

وعندما تصاعد الدور الأوربى فى عالم البحر المتوسط — نتيجة نجاح الحملة الصليبية الأولى — فى القرن الثانى عشر ، ثم بداية الالتفاف والتوغل الأوروبى فى مياه المحيط الهندى ومدخل البحر الأحمر ، وجد ملوك الحبشة المسيحيون فى هذه التطورات العسكرية والسياسية الناجمة عن نشاط الصليبيين فى البحر المتوسط ، والنشاط البرتغالى فى المحيط الهندى ما يغريهم على صياغة مشروعات صليبية الطابع مع القوى الأوروبية ضد مصر . وكان ذلك انعطافا خطيرا فى العلاقات بين مصر والحبشة آنذاك .

لقد اتخذت العلاقات المصرية/الحبشية فى عصر سلاطين المماليك أبعادا ثلاثة : أولها : البعد الاقتصادى ، الذى تمثل فى المصالح التجارية لكل من البلدين فى داخل أفريقيا وفى تجارة البحر الأحمر العالمية . وثانيها : البعد الدينى الذى تجسد فى الروابط الدينية التى جمعت بين مصر ومسلمى الطراز الاسلامى من ناحية ، والحبشة وكنيسة الأقباط فى مصر من ناحية أخرى . أما البعد الثالث : فقد جسدته العلاقات السياسية والعسكرية التى كانت بدورها انعكاسا لحركات المد والجزر فى العلاقة فى بعديها الاقتصادى وبعدها الدينى . ولنبدأ فى معالجة كل من المسارات الثلاثة التى اتفقنا عليها .

* * *

واذا بحثنا فى البعد الاقتصادى لوجدنا أن الظروف الناجمة عن الغزو المغولى ، الذى بدأ يجتاح المناطق الاسيوية منذ عهد جنكيزخان حتى داهم الخلافة العباسية ببغداد فى خمسينيات القرن الثالث عشر الميلادى ، قد أدت الى تحول طرق التجارة العالمية الى مصر وطريق البحر الأحمر . وبذلك صارت لمصر مصالح تجارية حيوية فى البحر الأحمر . فقد وصل المغول

الى فارس والعراق وشرق آسيا الصغرى ، وبذلك انقطعت القوافل التجارية بين أوربا والشرق عن ارتياد ذلك الطريق ، وتحولت الى الطريق عبر مصر والبحر الأحمر .

وقد تميز طريق البحر الأحمر التجارى بميزتين هامتين تتعلق أولاهما بالتجارة العالمية وهى سيادة الأمن على طول هذا الطريق بسبب قوة الدولة المملوكية ومهابتها فى طور صعودها ، على حين تتصل الميزة الثانية بتجارة البحر الأحمر الداخلية ، اذ كان هذا البحر سوقا لتبادل المنتجات التى توفرها البلاد الافريقية الداخلية والتى تطل على البحر ، فقد كان البحر الأحمر الطريق الأساسى لمنتجات امارات الطراز الاسلامى ، فضلا عن منتجات الحبشة وافريقيا الوسطى وبلاد البجاة . ومن المهم ان نشير الى أن البجاة كانوا يقومون بدور الواسطة فى العلاقات التجارية بين مصر والحبشة . وكانت عاصمتهم سواكن . وقد وصفهم القلقشندى بأنهم سكان المنطقة الواقعة ما بين نهر النيل والبحر الأحمر جنوبى الصعيد ، وفى عصر المماليك الجراكسة كان حاكمهم عربيا ، وله مكاتبة عن الأبواب السلطانية(٥) . وهكذا امتدت خيوط الروابط التجارية بين مصر والحبشة فى اتجاهين : أحدهما يهتم بمصالح مصر ودورها فى التجارة العالمية التى تستخدم البحر الأحمر ، على حين يهتم الاتجاه الثانى بالتجارة الداخلية بين الدول الافريقية ، سواء الداخلية منها أو تلك التى تطل على البحر الأحمر .

هذه المصالح التجارية ، بجناحيها العالمى والمحلى ، هى التى حكمت علاقات مصر بعالم البحر الأحمر على مستوى العلاقات الاقتصادية التى تبادلت التأثير والتأثر مع العلاقات السياسية والدينية . وقد اهتم سلاطين المماليك

---

(٥) القلقشندى ، صبح الأعشى ، ج ٥ ، ص ٢٧٤ . وكان البجاة خليطا من المسلمين والمسيحيين والوثنيين . ومنذ القرن السابع الميلادى ذكرهم المؤرخ عبد الرحمن بن عبد الحكم وهو يتحدث عن حملات عبد الله بن سعد ابن أبى السرح . ومنذ ذلك الحين اختلطت بهم بعض القبائل العربية التى استوطنت أرض البجاة ، ومع مرور الزمن تصاعد الوجود العربى فى تلك الأنحاء حتى انتشرت اللغة العربية والاسلام فى مناطق البجاة لتقترب من حدود الحبشة التى كانت تضم بعض مناطق السودان الحديث (حسن محمود ، الاسلام والثقافة العربية فى افريقيا ، ص ٤١٩ — ص ٤٢٥) .

بانشاء الوكالات التجارية المصرية على طول شاطىء هذا البحر ، كما اهتموا بتأمين طرق القوافل التجارية على البر . وأخذ الأسطول المصرى يجوب مياه البحر الأحمر من السويس الى عدن مطاردا القراصنة كما امتدت فوق الأرض المصرية شبكة من الطرق البرية والنهرية ، وقامت على ضفاف نهر النيل عدة موانىء لخدمة التجارة العالمية كان أهمها فى القرن الأول من عصر سلاطين المماليك ميناء عيذاب على البحر الأحمر ومدينة قوص فى الوادى(٦) .

والواقع أن التجارة على الساحل الشرقى لافريقيا قد نشطت منذ القرن الثانى عشر الميلادى بسبب الحروب الصليبية التى أدت الى استخدام طرق القوافل البرية التى امتدت شبكتها فى القارة الافريقية ، وكان أهم ما تنقله هذه القوافل العاج والذهب اللذين اشتد الطلب عليهما فى أسواق غرب أوربا(٧) . وكانت امارات الطراز الاسلامى على الشاطىء الشرقى لافريقيا تقوم بدور المعبر الهام لهذه التجارة التى ازداد نشاطها بعد غزوات المغول .

ومنذ البداية اشتدت المنافسة بين موانىء البحر الأحمر على نقل التجارة العالمية وتجارة افريقيا الداخلية . فكانت موانىء مصوع وسواكن تختص بنقل تجارة الحبشة والنوبة حيث كانت القوافل القادمة عن طريق البر تحمل اليها الرقيق والشمع والعسل من بلاد النوبة . كذلك كانت سفن دول افريقيا والبحر الأحمر تتجمع بمينائى زيلع وبربرة اللذين كانا بمثابة المركز الذى تتجمع فيه تجارة الحبشة والنوبة . وفى ميناء زيلع كانت تعقد أسواق العبيد والمعادن واللؤلؤ(٨) .

وكانت امارة أوفات الاسلامية (جبرة أو جبرت) تتحكم فى الطريق

---

(٦) المقريزى ، الخطط ، ج ١ ، ص ٢٠١ ، وقد ظل تجار الحبشة ، وغيرهم ، يردون فى البحر الأحمر الى عيذاب ثم يسلكون الصحراء الشرقية الى قوص ثم العاصمة المصرية . وقد استمر الحال كذلك حتى سنة ٧٦٠ هجرية ، فتلاشى أمر ميناء عيذاب واحتلت عدن مكانتها (الخطط ، ج ١ ، ص ٢٠٢) .

(٧) الشاطر بصيلى ، تاريخ وحضارات السودان الشرقى والأوسط (الهيئة العامة للكتاب) ، ص ٢٠٠ .

(٨) نعيم زكى ، طرق التجارة الدولية ومحطاتها بين الشرق والغرب ، ص ١٤١ — ص ١٤٢ .

التجارى الذى يربط داخل الحبشة بميناء زيلع على البحر الأحمر(٩) . وقد ذكر « القلقشندى » أن امارة أوفات كانت أوسع الممالك الاسلامية السبع التى تكون « الطراز الاسلامى » وأنها أقربها الى مصر(١٠) أما امارة هدية فكانت مركزا لتوريد الرقيق الذين كانوا يخصونهم فى قرية قريبة منها(١١) . وقد ازدهرت هذه الامارات وزاد ثراؤها من دورها فى تجارة أفريقيا والبحـــر الأحمر بحيث استقلت عن الحبشة ، ثم دخلت معها فى سلسلة من الحروب الطاحنة كما سنرى فى صفحات هذا البحث .

ومنذ البداية أدرك سلاطين المماليك أهمية تأمين الطريق التجـارى البحرى والبرى بين مصر وأفريقيا ، فقد ذكر « ابن عبد الظاهر » أن صاحب سواكن المسمى « علم الدين أسبعانى » ، الذى كان معاصرا للســلطان « الظاهر بيبرس » كان قد اعتاد التعرض للتجار المصريين وأخذ ميراث من يموت منهم فى البحر ، ومنع أولاده منه ، فأرسل يحذره هو وصاحب جزر دهلك المواجهة لمصوع ، ولمـا لم يجد منهما استجابة لاحتجاجه أمر بتجريد حملة بحرية لاخضاع سواكن فى سنة ٦٦٣ هجرية (١٢٦٥ م). وبالفعل قامت حملة بقيادة والى قوص وأخميم ، وهرب صاحب ســواكن التى تم اخضاعها لمصر . ومنذ ذلك الحين كانت هناك حامية عسكرية مصرية دائمة فى سواكن عاصمة بلاد البجاة التى كانت ممرا للتجارة بين مصر والحبشة(١٢) .

---

(٩) عبد الرحمن زكى ، الاسلام والمسلمون فى أفريقيا ، ص ٢١٣ — ص ٢١٥ ، حسن محمود ، الاسلام والثقافة العربية فى أفريقيا ، ص ٤٣٢— ص ٤٣٣ .

(١٠) القلقشندى ، صبح الأعشى ، ج ٥ ، ص ٣٢٥ .

(١١) المصدر نفسه ، ج ٥ ، ص ٣٢٨ .

(١٢) ابن عبد الظاهر ، الروض الزاهر فى سيرة الملك الناصر ، ص ٢٤٨ — ص ٢٤٩ . والجدير بالذكر أن مصر كانت تصدر الى الحبشة البلسان أو البلسم الذى كان ينمو فى المطرية من ضواحى القاهرة ، وكان المسيحيون يحرصون عليه ولا يساوونه بذهب أو فضة لاعتقادهم انه يروى من بئـــر اغتسل فيها المسيح حين قدمت به أمه الى مصر (القلقشندى ، صـــبح الأعشى ، ج ٣ ، ص ٢٨٣) كذلك كان شحم البقر يصدر من مصر الى دول الساحل الافريقى وغيرها لاستخدامه فى دهان السفن ، ابن ظهيرة ، الفضائل الباهرة فى محاسن مصر والقاهرة ، ص ١٣٤ .

وظلت سياسة المماليك قائمة على أساس الحفاظ على أمن طريق التجارة بين مصر وافريقيا ودول البحر الأحمر .

بيد أن تدهور البناء الداخلى لدولة المماليك الجراكسة لم يلبث أن انعكس على علاقاتها التجارية بعالم البحر الأحمر وافريقيا . ذلك أن حاجة السلاطين المتزايدة الى الأموال جعلتهم يشتطون فى تقدير قيمة الضرائب التى فرضوها على التجار القادمين فى البحر الأحمر الى ميناء جدة الخاضع لهم . وقد تدهورت الموانىء المصرية لدرجة ان « ابن اياس » يذكر فى حوادث سنة ٩٢٠ هجرية (١٥١٥ م) ان المراكب لم تدخل جدة مدة تقرب من ست سنوات(١٣) .

ومن ناحية اخرى ، ادى نجاح البرتغاليين فى الوصول الى مياه المحيط الهندى فى سنة ١٤٨٩ م بمساعدة الملاح المسلم « أحمد بن ماجد » الى حصار المداخل الجنوبية للبحر الأحمر بحيث تحولت السفن المحملة بالتوابل الى لشبونة عن طريق راس الرجاء الصالح . وقد ذكر « المؤرخ اليمنى « يحيى بن الحسين » أن البرتغاليين قد فشلوا عدة مرات فى الدوران حول افريقيا للوصول الى المحيط الهندى ، ثم « ... دلهم على الطريق رجل ماهر من أهل البحر يقال له « أحمد بن ماجد » بسبب أن كبير الافرنج احسن اليه ولاطفه ... »(١٤) . فقد كان « فاسكو دا جاما » فى ملندى بشرق أفريقيا سنة ١٤٩٨ م يبحث عن أحد الأدلاء ليقوده الى الهند ، وهناك لم يجد سوى « أحمد بن ماجد » الذى كان ملاحا ممتازا ، وكان قد وضع دليلا بحريا استند فيه الى خبرته الشخصية الى جانب كتب السابقين(١٥) .

وهكذا بات الخطر البرتغالى يهدد البحر الأحمر ذاته . وعلى الرغم من النجاح الجزئى الذى أحرزه السلطان « قنصوه الغورى » ، وقائد اسطوله

---

(١٣) ابن اياس ، بدائع الزهور ، ج ٤ ، ص ٣٥٩ ، كما يذكر فى موضع آخر (ج ٥ ، ص ٩٠) أن التجار امتنعوا عن دخول ميناء جدة « ... وآل أمره الى الخراب .. » .

(١٤) يحيى بن الحسين ، غاية الأمانى فى أخبار القطر اليمانى ، ج ٢ ، ص ٦٣٠ — ص ٦٣٢ .

(١٥) جورج فاضلو حوراني ، العرب والملاحة فى المحيط الهندى (ترجمة الدكتور يعقوب بكر — الأنجلو ١٩٥٨ م) ، ص ٢٣٧ .

« حسين الكردى » فى ابعاد البرتغاليين عن البحر الأحمر ، فان تدهور الأحوال الداخلية فى مصر فى اواخر عصر سلاطين المماليك جعل مقاومة المحاولات البرتغالية غير ذات جدوى(١٦) . فمنذ نجاح البرتغاليين فى الوصول الى الهند بحرا عن طريق راس الرجاء الصالح ، اخذ طريق البحر الأحمر التجارى يفقد قيمته تدريجيا . وكان طبيعيا أن تتدهور موانىء هذا البحر منذ ذلك الحين . وضاع طريق البحر الأحمر ليعود ثانية بعد افتتاح قناة السويس .

وعلى صعيد العلاقات الدينية ، كانت علاقة مصر بالحبشة محكومة بحقيقتين هامتين **أولاهما** : تتمثل فى الوجود الاسلامى شرق الحبشة ، **وثانيتهما** : العلاقة الوثيقة التى كانت تربط كنيسة الحبشة بالكنيسة القبطية .

وبالنسبة للوجود الاسلامى فى شرق الحبشة ، فان التاريخ يذكر لنا أن ثمة علاقة مبكرة قد قامت بين المسلمين والحبشة منذ هجرة المسلمين الأولى الى الحبشة فرارا من اضطهادات المكيين لهم .

بيد أن أول احتكاك بين الدولة العربية الاسلامية والحبشة كان فى عهد الخليفة « عمر بن الخطاب » حين ارسل اسطولا صغيرا لغزو الحبشة سنة ٢٠ هـ تقريبا بقيادة « علقمة بن مجزر المدلجى »(١٧) . وباءت تلك الحملة بالفشل . وطوال العصور التالية زاد الوجود العربى الاسلامى بطريقة سلمية فى الحبشة وشرق افريقيا ، خصوصا فى ارخبيل دهلك المواجه لمصوع على الساحل الصومالى . ومن ناحية أخرى كان من نتيجة التبادل التجارى ، بين اليمن والحجاز من ناحية والحبشة وشرق افريقيا من ناحية ثانية ، أن رحلت مجموعة من التجار العرب المسلمين الى هذه الأنحاء ، واستقروا فى جبرت (أوفات) وسموا بعد ذلك « الجبرتية »(١٨) . وكانت تلك نواة امارات

---

(١٦) ابن اياس ، بدائع الزهور ، ج ٤ ، ص ١٨٢ — ص ١٨٥ م . وقد ذكر فى حوادث سنة ٩١٦ هجرية أن أمير مكة قبض على ثلاثة من البرتغاليين متخفين فى زى الأروام .

(١٧) حسن أحمد محمود ، الاسلام والثقافة العربية ، ص ٤٢٦ — ٤٣٣ .

(١٨) كانت هذه المجموعة من المستوطنين المسلمين الأوائل من قبيلة قريش على ما يبدو وذكر بعضهم أنهم من بنى هاشم من سلالة بنى عبد الدار ، على حين زعم البعض الآخر انهم من سلالة على بن ابى طالب — انظر :
المقريزى ، الالمام بأخبار من بأرض الحبشة من ملوك الاسلام ، ص ٩ .

« الطراز الاسلامى » التى ازدهرت فيما بين القرن الرابع الهجرى والقرن السابع الهجرى (العاشر/الثالث عشر الميلادى) . وقد امتد نفوذهم على مناطق الساحل الشرقى الافريقى بحيث تكونت ممالكهم السبع بفضل دورهم فى التجارة المحلية وتحكمهم فى طريق تجارة الحبشة الى موانىء البحر الأحمـــر .

وقد وصف « القلقشندى » و« المقريزى » هذه الامارات وصفا دقيقا اعتمادا على ما ذكره « العمرى » صاحب « مسالك الأبصار » ، وروايات التجار والفقهاء الذين زاروا هذه المناطق . وقد حددها « القلقشـــندى » جغرافيا بأنها تقع على الساحل الشرقى لافريقيا « ... المقابلة لبر اليمن على أعالى بحر القلزم وما يتصل به من بحر الهند ، ويعبر عنها الطـــراز الاسلامى لأنها على جانب البحر كالطراز له ... »(١٩) . وقد عرفت هذه البلاد فى مصر وبلاد الشام باسم « بلاد الزيلع » على الرغم من أن الزيلع « ... قرية من قراها ، وجزيرة من جزائرها غلب عليها اسمها ... »(٢٠) .

هذه الامارات السبع هى : أوفات (جبرة ، أو جبرت) التى كانت أقوى امارات الطراز الاسلامى وأكثرها عسكرا وأقربها الى مصر ، وكانت زيلع احدى مناطقها يفد اليها التجار فيرحب بهم أهلها ، وكانت مركزا هاما من مراكز التبادل التجارى لمنتجات داخل الحبشة ودول البحر الأحمر . والامارة الثانية هى « دوارو » ، والثالثة « أرابينى » ، والرابعة « هدية » التى كانت مركزا هاما من مراكز تجارة الرقيق الافريقية . وكانت هناك قرية قريبة اسمها « وشلو » يخصون بها العبيد « ... أهلها همج لا دين عندهم ، فتخصى بها العبيد ، ولا يقدم على هذا فى جميع بلاد الحبشة سواهم .. » . والامارة الخامسة « شرحا » ، والسادسة « بالى » ، ثم الامارة السابعة « دارة » التى كانت أضعف امارات « الطراز الاسلامى »(٢١) .

وكانت هذه الامارات السبع خاضعة للنفوذ السياسى لملك الحبشـــة

---

(١٩) القلقشندى ، صبح الأعشى ، ج ٥ ، ص ٣٢٤ — ٣٣٠ .
(٢٠) المقريزى ، الالمام ، ص ٢ .
(٢١) القلقشندى ، صـــبح الأعشى ، ج ٥ ، ص ٣٢٤ — ٣٣٠ . ، المقريزى ، الالمام ، ص ٢ — ٩ .

الذى كان نفوذه يشمل تسعة وتسعين ملكا من حكا مالولايات منهم سبعة مسلمون كانوا يؤدون له ضريبة سنوية من المال والقماش وغيره .

وقد تداخلت العلاقات السياسية بالعلاقات الدينية فى ذلك الزمان بشكل يصعب تحديد مداه . ومن ثم كانت العلاقات بين الحبشة وامارات « الطراز الاسلامى » من أهم نقاط التوتر فى العلاقة بين مصر والحبشة ، فقد كان سلاطين المماليك يعتبرون انفسهم مسئولين عن المسلمين فى تلك الأنحاء . كما أن موقع هذه الامارات فى منطقة القرن الافريقى ذات الموقع الحاكم فى البحر الأحمر كان يجعل مصر والحبشة يهتمان بهذه المنطقة لاعتبارات أمنية .

وعلى الصعيد السياسى/العسكرى تدهورت العلاقات بين البلدين أحيانا بسبب الحروب التى شنها الملوك الأحباش ضد امارات الطراز الاسلامى . وهى حروب استمرت ، بشكل متقطع منذ القرن الثالث عشر حتى القرن السادس عشر . ولم يكن سلاطين المماليك بقادرين على التدخل المباشر لصالح مسلمى الحبشة ، ومن ثم فأنهم لجأوا الى الطرق الدبلوماسية أحيانا ، والضغط عن طريق بطريرك الأقباط الذى كان الزعيم الروحى للاحباش أحيانا اخرى . والحقيقة أن قانون كنيسة الأحباش الذى كان يجعل من الضرورى تعيين مطران يعقوبى قبطى لرئاسة الكنيسة الحبشية هو الذى جعل ملوك الأحباش يهتمون برد فعل سلاطين المماليك ولا يواصلون حروبهم الوحشية ضد مسلمى امارات الطراز الاسلامى .

والجدير بالذكر أن العلاقات بين مصر والحبشة كانت قد توقفت فى النصف الأول من القرن الثالث عشر بسبب الحروب الأهلية واضطراب الأمن فى الحبشة . وفى سنة ١٢٧٠ م بدأ حكم الأسرة السليمانية عندما اعتلى العرش النجاشى « يكونو املاك » (٧٠ — ١٢٨٥ م) ، فتمت المصالحة بينه وبين الكنيسة الحبشية . وعلى الرغم من كراهيته لمسلمى الطراز الاسلامى بسبب اتساع نفوذهم وسيطرتهم على الموانىء والتجارة ، فانه سعى لتحسين العلاقات مع مصر حيث يقيم البطريرك القبطى صاحب السلطة على كنيسة الحبشة . وأرسل « يكونو املاك » الى السلطان « الظاهر بيبرس » سنة ٦٧٣ هـ (١٢٧٤م) برسالة ضمن كتاب صاحب اليمن ، الذى طلب نجاشى الحبشة وساطته ، يطلب مطرانا لكنيسة الحبشة . وقد حفظت

لنا المصادر العربية نص هذه الوثيقة والرد المصرى عليها(٢٢) . وتشير الوثيقة الى أن الملك الحبشى قد أرسل هدية الى السلطان بيبرس ، كما تحمل بين سطورها تهديدا خفيا بذكر المسلمين الخاضعين لسلطة ملك الحبشة . وقد رفض الظاهر بيبرس ارسال المطران الى الحبشة نظرا لما بلغه من هجوم « يكونو أملاك » على امارة أوفات وحلفائها . ومع ذلك فان الرد الرسمى رفض الطلب الحبشى بحجة عدم حضور رسول من جهة نجاشى الحبشة « .. حتى كنا نعرف الغرض المطلوب ... » . وقد أدى هذا الموقف من جانب بيبرس الى عقد هدنة مع أوفات(٢٣) .

والواقع أننا لا نقصد أن نقدم هنا رصدا زمنيا تتابعيا (كرونولوجى) لأخبار الحروب بين مسلمى الحبشة والملوك الأحباش المسيحيين ، ولكن ما يهمنا أن نضع بعض نماذج التدخل المصرى فى عصر سلاطين المماليك لصالح المسلمين . ففى سنة ٧٢٦ هـ وصلت رسالة من نجاشى الحبشة « عمدا صهيون » (١٤ — ١٣٤٤ م) الى السلطان الناصر « محمد بن قلاون » يعبر فيها النجاشى عن غضبه لما حدث من تخريب لكنائس الأقباط ، ويهدد باضطهاد المسلمين فى الحبشة ، وبسد مجرى النيل حتى لا يسير الى مصر فسخر منه السلطان ورد رسله . وربما كان موقف الناصر محمد ناجما عن الأخبار التى وصلته عن هجوم الملك الحبشى على المسلمين وهو ما جعله يأمر البطريرك بالتدخل(٢٤) .

---

(٢٢) ابن عبد الظاهر ، تشريف الأيام والعصور ، ص ١٦٩ — ١٧٠ ، القلقشندى ، صبح الأعشى ، ج ٨ ، ص ١١٩ — ١٢٠ ، مفضل بن أبى الفضائل ، النهج السديد ، ص ٣٨٣ — ٣٨٧ ، تاريخ ابن الفرات ، ج ٧ ، ص ٢٤ — ٢٥ .

(٢٣) حسن محمود ، الاسلام والثقافة العربية ، ص ٤٥٢ — ٤٥٤ ، زاهر رياض ، الاسلام فى أثيوبيا ، ص ١٦٩—١٧٠ ، سعيد عاشور ، « بعض أضواء جديدة على العلاقات بين مصر والحبشة فى العصور الوسطى » ، المجلة التاريخية المصرية/١٤/١٩٨٦ ، ص ١٦ .

(٢٤) المقريزى ، السلوك لمعرفة دول الملوك ، ج ٢ ، ص ٢٧٠ . وربما كان هذا الموقف ناتجا عن وجود البعثة الدومينيكانية التى أرسلتها البابوية الى افريقيا للبحث عن القديس جون ومملكته الأسطورية — انظر : الشاطر بصيلى : تاريخ وحضارات السودان ، ص ١٢٠ — ١٢٤ ، القلقشندى ، صبح الأعشى ، ج ٥ ، ص ٣٣٣ .

وفى عهد النجاشى « سيف أرعد » (١٣٤٤ — ١٣٧٢ م) تم القبض على عدد من التجار المصريين والمسلمين فى الحبشة ، وأعدم بعضهم على حين أرغم البعض الآخر على اعتناق المسيحية ، كما سارت فرقة من الجيش الحبشى لاعتراض طريق القوافل التجارية بين مصر والحبشة . ولكن السلطان الناصر « حسن بن محمد بن قلاون » تدخل فى حل المشكلة التى تسبب فيها « الأمير شيخو » وطلب من البطريرك مكاتبة ملك الحبشة وأرسل له عددا من الأساقفة(٢٥) .

وفى عصر الجراكسة استمرت العلاقات السياسية بين مصر والحبشة على ما هى عليه من تذبذب بسبب الروابط الدينية التى تربط بين مسلمى الحبشة ومصر . وكانت أولى الحوادث فى صفحة العلاقات السياسية بين الدولتين هى تلك الحادثة التى أشارت اليها المصادر المعاصرة(٢٦) وملخصها أن نجاشى الحبشة « داود بن سيف أرعد » (١٣٨١ — ١٤١١ م) قد هاجم حدود مصر الجنوبية سنة ٧٨٣ هجرية (١٣٨١م) وعاث فيها فسادا » ... ونال أهل الاسلام منهم بلاء كبير ... « . فقام الأمير الكبير برقوق (الذى اعتلى العرش فيما بعد تحت لقب الظاهر برقوق) باستدعاء الأنبا متاؤس بطريرك الأقباط وأمره بكتابة رسالة الى النجاشى ينهاه فيها عن مهاجمة مصر مرة ثانية . وعلى الرغم من أن كلا من « المقريزى » « وابن حجر » يذكران أن سفارة سافرت من مصر الى الحبشة برسالة حملها « برهان الدين الدمياطى » ، وعادت بعد ثلاث سنوات(٢٧) ، فاننا نميل الى رأى الشاطر بصيلى الذى يستبعد قيام الأحباش بهذه الغارة لبعد المسافة ووعورة الطريق(٢٨) .

وعلى أية حال ، فان العلاقات بين الدولتين سادها طابع السود

---

(٢٥) كان الأمير شيخو قد سجن البطريرك فى الاسكندرية فاهتاج ملك الحبشة لذلك وأفرج السلطان عن البطريرك وراسل ملك الحبشة بقصد التخفيف عن المسلمين هناك . (الشاطر بصيلى ، المرجع السابق ، ص ٥٦).

(٢٦) المقريزى ، السلوك ، ج ٣ ، ص ٤٤٥ — ٤٤٧ .

(٢٧) ابن حجر ، انباء الغمر ، ج ١ ، ص ٢٨٩ ، المقريزى ، السلوك ، ج ٣ ، ص٤٤٧ .

(٢٨) الشاطر بصيلى ، تاريخ وحضارات ، ص ١٢٤ — ١٢٥ .

والاستقرار فى عهد السلطان « الظاهر برقوق » وابنه « الناصر فرج » كما يبدو واضحا من أخبار السفارات المتبادلة التى حملتها لنا مصادر تلك الفترة ، فقد سافر « برهان الدين الدمياطى » الى الحبشة كما اسلفنا القول وعاد منها سنة ٧٨٦ هـ (١٣٨٤ م)(٢٩) . وبعد وصوله بعامين جاء الى مصر وفد حبشى بهدايا فاخرة « ... فيها من طرائف بلادهم ، ومن جملتها قدور ملئت بذهب صيغ على قدر الحمص ... »(٣٠) كذلك فان لدينا وثيقة هامة هى نص خطاب النجاشى « داود بن سيف أرعد » للسلطان برقوق(٣١) . وفى هذه الوثيقة يقرر الملك الحبشى أن بلاده مفتوحة أمام التجار والمسافرين ، ويذكره بما كان بين جده « عبد سنون » ، والملك « الناصر محمد بن قلاون » من محبة واتفاق . ويخبره بوصول رسالة البطريرك متاؤس والرسالة التى حملها « برهان الدين الدمياطى » . ثم يدخل فى صميم موضوع رسالته حين يقول انه لا يلحق بالمسلمين فى بلاده اى اذى ، وأن أى أخبار تصل السلطان المصرى عن اضطهاد المسلمين فى الحبشة أخبار كاذبة . ومن الطريف انه يزعم أنه يأمر قومه بصرف المياه الزائدة عن النيل حتى لا يصل الى مصر ويغرقها . وبعد أن يتحدث عن حسن معاملة التجار الواردين من الديار اليمنية والمصرية والحجازية يقول ان المسلمين فى بلاده ينعمون بالأمان . ثم يطلب حسن معاملة النصارى بالديار المصرية ويهدد صراحة « ... ومهما فعلتموه مع أبينا البطرك وأخوتنا النصارى من الخير والشر ، فنحن فاعلوه مع سائر المسلمين فى حوزتنا وفى سلطاننا ... » . ثم يختتم الرسالة باستعراض قوة بلاده وعظمتها .

ولكن العلاقات ما لبثت أن توترت من جديد بين مصر والحبشة بسبب الهجمات التى شنها هذا النجاشى وخلفاؤه ضد مسلمى امارات الطراز الاسلامى منذ سنة ٨٠٥ هجرية (١٤٠٢ م) وربما يكون السبب فى هذا التحول ما طرأ على تسليح الجيش الحبشى وتدريبه من تحسن وتطور بفضل

---

(٢٩) ابن حجر ، انباء الغمر ، جـ ١ ، ص ٢٨٩ .

(٣٠) المقريزى ، السلوك ، جـ ٣ ، ص ٥٥٥ ، ابن حجر ، انباء الغمر ، جـ ١ ، ص ٣١٦ ، السخاوى ، التبر المسبوك ، ص ٦٧ وما بعدها .

(٣١) ضمن مجموعة سيرة برلام يواصف — مخطوط بمكتبة الأقباط الارثوذكس ، نقلا عن كتاب : أمين حكيم عبد السيد ، قيام دولة المماليك الثانية ، ص ١٧٦ — ص ١٨٠ .

مساعدة بعض امراء المماليك وبعض أرباب الادارة المصرين الذين رحلوا الى بلاط النجاشى . فقد ذكر المقريزى أنه فى عهد النجاشى « اسحق بن داود بن سيف أرعد » (١٤١٤—١٤٢٩ م) فر والى قوص المدعى « الطنبغا مفرق » الى بلاط هذا الملك ، وعلم أتباعه لعب الرمح ، ورمى النشاب وغير ذلك من أدوات الحرب ، ثم لحق به بعض المماليك الجراكسة ممن لديهم الخبرة فى ترتيب خزائن السلاح (الزردخاناة) « ... فعمل له زردخاناه ملوكية ، وتوجه اليه مع ذلك رجل من كتاب مصر الأقباط النصارى — يقال له فخر الدولة — فرتب له مملكته ، وجبى له الأموال ، وجند له الجنود ... »(٣٣) .

فقد شن هذا الملك هجوما عنيفا ضد امارات الطراز الاسلامى سنة ٨٢٢ هـ مما جعل السلطان المؤيد شيخ يتخذ بعض الاجراءات ضد المسيحيين فى مصر والشام(٣٣) وفى سنة ٨٢٥ هـ (١٤٢٢ م) قام السلطان الجديد « برسباى » باغلاق كنيسة القيامة فى بيت المقدس انتقاما مما جرى للمسلمين فى الحبشة ، وبسبب غارات القراصنة الكتلان على الشواطىء العربية فى تلك السنة . وكان رد الفعل عنيفا من جانب النجاشى اسحق بن داود (جبرا مصقل) الذى وضع السيف فى رعاياه المسلمين ، وهاجم أوقات وأهان المساجد والمسلمين . وهاج برسباى عندما بلغته تلك الانباء . وهدد بمذبحة عامة ضد جميع رعاياه المسيحيين(٣٤) .

ويبدو أن هجوم ملوك الحبشة المسيحيين على دول الطراز الاسلامى قد بلغ مستوى عاليا من العنف بسبب تطور الجيش الحبشى بفضل الخبرة المصرية ، بحيث فر ولدا « سعد الدين المجاهد » الى اليمن سنة ٨٢٥ هـ حيث استقبلهما سلطان تفر فى جنوب اليمن واكرمهما وجهزهما بمائتى فارس

---

(٣٢) المقريزى ، السلوك ، جـ٤ ، ص ٨٣٨ — ٨٤٠ ، ابن تغرى بردى ، النجوم ، جـ ١٤ ، ص ٣٤٩ .

(٣٣) ابن حجر ، انباء الغمر ، جـ ٣ ، ص ١٩٤—١٩٥ ، المقريزى ، السلوك ، جـ ٤ ،ص ٤٩٢ — ٤٩٣ ، ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، جـ ١٤ ، ص ٨١ — ٨٤ ، العينى عقد الجمان ، حوادث ٨٢٢ هـ (مخطوط).

(٣٤) ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، جـ ١٤ ، ص ٢٦٠ ، المقريزى ، السلوك ، جـ ٤ ، ص ٦٤٩ .

بعتادهم فعادا الى الحبشة لمواصلة الحرب ضد الأحباش(٣٥) . وفى سنة ٨٣٣ هـ هاجم نجاشى الحبشة أوفات « ... فقتل وسبى وأسر عالما عظيما ، وكان ممن أسرهم منصور ومحمد ولدا السلطان سعد الدين بن أحمد بن على ابن ولصمع الجبرتى .. ملك المسلمين بالحبشة ... »(٣٦) .

ولكن النجاشى « زرعا يعقو ب» (١٤٣٤ — ١٤٦٨ م) أرسل سفارة تحمل طلبا باعادة العلاقات الودية بين مصر والحبشة ، ووصلت السفارة سنة ٨٤٧ هجرية (١٤٤٣ م) ، وتضمنت الرسالة بعض عبارات التهديد التى أثارت غضب السلطان « جقمق »(٣٧) . فقد جاء بها ما نصه « ... وليس يخفى عليكم ولا على سلطانكم أن بحر النيل ينجر اليكم من بلادنا ، ولنا الاستطاعة على أن نمنع الزيادة التى تروى بها بلادكم عن المشى اليكم ، لأن لنا بلادا انفتح لها أماكن سوقانية يتصرف فيها الى أماكن أخرى قبل أن يجيىء اليكم ، ولا يمنعنا من ذلك الا تقوى الله والشفقة على عباده ... » .

وغضب السلطان جقمق « ... ولكنه سلك طريقة وسطى ... » وأرسل سفارة بهدية الى الحبشة ، رفض فيها مطالب ملك الحبشى ، ولم يشأ الاستماع الى دعاوى النجاشى « زرعا يعقوب » بشأن التسامح تجاه المسلمين الأحباش ، لأنه كان يعرف تماما جهوده من خلال رجال السلك الكهنوتى من المصريين والأحباش فى مجمع فلورنسا للحصول على مساعدة أوربا لتدمير القوى الاسلامية فى الحبشة(٣٨) .

والواضح من سياق الأحداث أن « زرعا يعقوب » لم يرض برد السلطان المملوكى فاحتجز الرسول المصرى وهدده بالقتل ، ثم أرغم الرسول المصرى على الركوب لميدان القتال حيث شاهد بنفسه هزيمة « شهاب الدين » ملك عدل وذبح أخيه « خير الدين » . وكان رد الفعل عنيفا لدى « جقمق » ،

---

(٣٥) يحيى بن الحسين ، غاية الأمانى فى أخبار القطر اليمانى ، جـ ٢ ، ص ٥٦٥ ، المقريزى ، السلوك ، جـ ٤ ، ص ٨٣٨ — ٨٤٠ .

(٣٦) ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، جـ ١٤ ، ص ٣٤٩ .

(٣٧) انظر نص رسالة الملك الحبشى فى : السخاوى ، التبر المسبوك ، ص ٦٧—٧١ .

(38) Ziada, Foreign relations, pp. 282-85.

وانظر ما يلى عن مجمع فلورنسا فى الصفحات التالية .

ولكنه سمح للتشاور المنعقل أن يستمر لأنه لم يكن يملك غير ذلك ، فأمر بطريرك الأقباط بمكاتبة ملك الحبشة . وبعد ذلك قرر « جقمق » الدخول فى علاقة مباشرة مع مسلمى الحبشة بزعامة « محمد بن شهاب الدين » سلطان أوفات الذى طلب من السلطان المملوكى أن يفعل ما فيه خير الاسلام دون التقيد بموقفهم فى الحبشة(٣٩) .

هكذا ، كانت السفارات المتبادلة بين مصر والحبشة تحاول استخدام الوسائل السلمية والدبلوماسية فى صالح المسلمين فى شرق الحبشة من جهة ومسيحيى مصر من جهة أخرى . واذا كانت مصر فى عصر سلاطين المماليك قد استخدمت أساليب الدبلوماسية والضغط السياسى للتخفيف عن مسلمى الحبشة ، فان ملك الحبشة القابع فى معاقله الجبلية الحصينة عند منابع النيل الأزرق كان من أشد المدافعين عن أقباط مصر النصارى حماسة بسبب العلاقات الوثيقة بين الكنيسة المصرية والكنيسة الحبشية التى كانت بمثابة فرخ من أفراخها . ولم تقف جهود ملك الحبشة عند حد الرسائل الودية والسفارات المحملة بالهدايا ، وانما تعدت ذلك الى التهديد بمنع مياه النيل عن مصر ، ثم محاولة صياغة مشروعات صليبية مشتركة مع الغرب الأوربى ضد مصر والمنطقة العربية عامة . وتلك قصة تستحق أن تروى .

ترجع العلاقة بين الكنيستين ، الحبشية والمصرية ، الى النصف الأول من القرن الرابع الميلادى حين استطاع « فرومنتيوس » تحويل الحبشة الى

---

(٣٩) السخاوى ، التبر المسبوك ، ص ٦٧—٧٣ .

(٤٠) بعد مرسوم ميلانو ٣١٣ م تسربت المسيحية الى الحبشة بفضل العلاقات التجارية مع الدولة البيزنطية ، ولكن تأسيس الكنيسة الحبشية يرجع الى أخوين من صورهما : فرومنتيوس وايدسيوس اللذين كانا ضمن بعثة تبشيرية قتلت كلها ولم ينج سواهما ، وتمكنا من اقناع ملك اكسوم باعتناق المسيحية وعين فرومنتيوس أول أسقف لكنيسة الحبشة . واعتنق الملك عزانة المسيحية وجعلها دين الدولة الرسمى حوالى منتصف القرن الرابع . ومنذ ذلك الحين وحتى نهاية الحرب العالمية الثانية كان مطران كنيسة الحبشة من الأقباط — أنظر :

سعيد عاشور ، بعض أضواء جديدة ، ص ٨ — ١٠ ، طرخان ، الاسلام والممالك المسيحية ، ص ١١ — ١٤ .

Atiya, The Crusades in the later Middle Ages, p. 276.

المسيحية الأرثوذكسية . ومنذ اعتماد فرومنتيوس ورسامته مطرانا للحبشة ، اصبح بطاركة الاسكندرية يولون اساقفة الحبشة(٤٠) . ومنذ قيام المسيحية فى الحبشة اعتبر الأحباش انفسهم ابناء الكنيسة القبطية فى مصر ، كما اعتبروا أن بطريرك الاسكندرية زعيمهم الروحى(٤١) .

ومنذ ذلك الحين كانت الحبشة دائما تحتاج الى الكتب الدينية من مصر ، فضلا عن أن رأس الكنيسة الحبشية كان مطرانا قبطيا يعينه بطريرك الأقباط الأرثوذكس فى مصر ، وكانت الأوامر السلطانية — فى عصر سلاطين المماليك — تخرج للبطريرك بارسال المطران المطلوب الى الحبشة بعد أن ترد رسالة النجاشى فى طلب ذلك ومعها الهدايا والتحف الثمينة . وكان هذا المطران يتمتع باحترام كبير من جانب الأحباش ، كما أن وجوده فى بلادهم كان على جانب كبير من الأهمية نظرا للمهام الاجتماعية والدينية التى ارتبطت بالكنيسة فى حياة الأحباش والتى لم يكن من الممكن انجازها فى غياب رأس الكنيسة ، اذ أن غيابه كان يعرض الكثير من الشئون الاجتماعية فى الحبشة لخطر الانهيار(٤٢) . وقد ذكرت المصادر التاريخية العربية ما يدل على اهمية بطريرك الأقباط الأرثوذكس بالنسبة للاحباش ، فقد ذكر القلقشندى أن البطريرك « .. صار لديهم كالخليفة على دين النصرانية عندهم يتصرف فيهم بالولاية والعزل ، ولا تصح ولاية ملك منهم الا بتوليته .. »(٤٣) كما ذكر « ابن فضل الله العمرى » أنه لا يصح تعمد معمودى الا باتصال من البطريرك(٤٤) . وقد ذكر المقريزى عبارة عامة تدل على مدى تعصب الأحباش لمذهب الطبيعة الواحدة الذى اعتنقته الكنيسة المصرية ، فقال ان الاحباش « .. يعتنقون مذهب اليعقوبية تشددا زائدا ... »(٤٥) .

---

(41) Leo Honsberry, «Ethiopian Ambassadors to Latin Courts and Latin emissiom aries to Prester John», in : Ethiopia Observer, IX, 2, 1965, p. 91.

(٤٢) ابن فضل الله العمرى ، التعريف بالمصطلح الشريف ، ص ٣٠ — ٣١ ، المقريزى ، الالمام ، ص ٣ ، القلقشندى ، صبح الأعشى ، ج ٥ ، ص ٣٢٢—٣٢٣ ، ابن عبد الظاهر ، تشريف الأيام والعصور ص ٤٧ من المقدمة .

(٤٣) القلقشندى ، صبح الأعشى ، ج ٥ ، ص ٣٠٨ — ٣٠٩ .

(٤٤) ابن فضل الله العمرى ، التعريف ، ص ٣٠ .

(٤٥) المقريزى ، الالمام ، ص ٣ .

ومن مظاهر تبجيل الملك الحبشى لأوامر بطريرك الأقباط أنه حين كان يرد اليه كتاب البطريرك يأمر بأن يتلى فى الكنيسة يوم الأحد ، والملك واقف فلا يجلس سوى بعد الفراغ من قراءته وتنفيذ أوامر البطريرك الواردة فيه(٤٦) .

كذلك عرفت الحبشة النظام الديرى نتيجة علاقاتها بمصر منذ القرن الخامس الميلادى وتأسست عدة أديرة للرهبان الأحباش ، كما أن الأحباش كان لهم دير فى بيت المقدس — الذى كان تحت الحكم المصرى آنذاك — ووجد منهم عدد فى أديرة مصر(٤٧) ، بل ان الأحباش اليعاقبة كان لهم دير مستقل فى وادى النطرون(٤٨) . وهو ما يدل بوضوح على مدى عمق الرابطة الدينية التى كانت تربط الأحباش بالكنيسة المصرية .

من ناحية اخرى ، حرصت السلطات المملوكية على أن تمسك بخيوط العلاقة بين الاحباش والكنيسة المصرية فى يدها . ويستفاد من الوثائق التى حفظتها لنا مؤلفات المؤرخين المعاصرين أن السلاطين كانوا يحتاطون كثيرا فى أمر هذه العلاقة خوفا من أن تستغل ضد الدولة ومصالحها لا سيما عندما بدأت تصل الى المصريين أنباء عن مؤامرات الأحباش ضد المصريين والمسلمين لتطويق المنطقة من الشمال والجنوب .

ولدينا وثيقة تجسد هذه المخاوف ، وهى عبارة عن « توقيع(٤٩) لبطرك النصارى اليعاقبة » يرجع تاريخه الى سنة ٧٦٤ هجرية ، ويهمنا التحذير

---

(٤٦) القلقشندى ، صبح الأعشى ، ص ٣٠٩ .
(٤٧) قاسم عبده قاسم ، أهل الذمة فى مصر العصور الوسطى (دار المعارف ١٩٧٩ م) ، ص ١٣٠—١٣٢ .
(٤٨) المقريزى ، الخطط ، جـ ٢ ، ص ٥٠٠—٥٠١ .
(٤٩) التوقيع : وجمعه تواقيع ، معناه الأساسى فى اللغة وضع خاتم أو علامة أو شعار فى أسفل وثيقة رسمية ، ثم اكتسبت الكلمة معنى اصطلاحيا فى العصر الأيوبى والفاطمى بحيث يعنى منشور ادارى عام صادر عن السلطان ويحتاج الى توقيعه أو علامته أو كليهما معا — انظر :
القلقشندى ، صبح الأعشى ، جـ ١١ ، ص ٣٨٥ ، قاسم ، أهل الذمة، ص ٦٦ — وكذلك :
Bosworth, Christian and Jewish religious dignitaries in Mamluk Egypt and Syria, JMES, vol. 3, 1972, pp. 199-200.

الصادر الى بطريرك اليعاقبة فى الوصية الصادرة لبطريرك اليعاقبة بعد هذا التوقيع تحمل التعليمات المتعلقة بالوظيفة . فالدولة فى هذه الوثيقة توجه تحذيرها المشدد للبطريك بالا يحاول الاتصال سرا بالحبشة « .. حتى اذا قدر لا يشم أطراف الجنوب .. »(٥٠) وبالضرورة كان اهتمام دولة سلاطين المماليك باستقرار واستمرار عزل الكنيسة القبطية عن القوى الخارجية كبيرا . ومع أن الأقباط كان لديهم تراث طويل من العداء المذهبى تجاه مسيحيى الغرب الأوربى وذكريات أليمة عن التعذيب الذى نال الأقباط من البيزنطيين ، وعلى الرغم من أن امكانية اعتبار القبط جواسيس يعملون لصالح القوى المسيحية الخارجية لم تكن واردة على الاطلاق ، فان الدولة المملوكية حرصت على أن تكون علاقة الكنيسة المصرية بالاحباش من خلالها .

ونستطيع من خلال الوثائق والمصادر التاريخية المتوفرة لدينا أن نتابع جهود الأحباش فى صالح المسيحيين المصريين . ولدينا طائفة من أخبار السفارات الحبشية التى جاءت الى القاهرة فى عصر سلاطين المماليك تطلب تعيين مطران جديد ، أو بعض الكتب ، أو تطلب السماح لبعض الحجاج الأحباش بزيارة بيت المقدس ، أو اعادة فتح بعض الكنائس والتخفيف عن الأقباط ... وما الى ذلك .

والجدير بالذكر أن العلاقات المصرية/الحبشية كانت قد توقفت فترة حوالى نصف قرن ، منذ بداية القرن الثالث عشر ، بسبب اضطراب الأحوال الداخلية فى الحبشة ، ولكن الامبراطور يكونو أملاك الذى اعتلى العرش سنة ١٢٧٠ م ، أرسل يطلب مطرانا ويعيد العلاقات ، ولكن السلطان الظاهر بيبرس رفض طلبه ، كما أوضحنا من قبل(٥١) . ثم أراد النجاشى «يجباصهيون» أن يصلح العلاقات بين البلدين لأن والده كان قد عين مطرانا من السوريان لرئاسة الكنيسة الحبشية مما أثار حفيظة شعب الحبشة ضد النجاشى « يكونو أملاك » . وأرسل « يجباصهيون » وفدا برئاسة عربى اسمه

---

(٥٠) نص التوقيع فى القلقشندى ، صبح الأعشى ، ج ١١ ، ص ٣٩٧ — ٣٩٩ . ونص « الوصية » فى ابن فضل الله العمرى : التعريف ، ص ١٤٦ .

(٥١) انظر ما سبق وأيضا ، النويرى ، نهاية الأرب ، ج ٢٨ ، ورقة ٢١٩ (مخطوط) .

« يوسف بن عبد الرحمن » ، ومعه ثلاثة كتب ، أولها للسلطان « المنصور قلاون » تاريخه شهر رمضان ٦٨٩ هجرية (١٢٩٠ م) .

وهذه الوثيقة التى حفظها لنا « ابن فضل الله العمرى »(٥٢) تكشف عن مدى اهتمام الأحباش بالروابط الدينية التى تربطهم بالكنيسة المصرية ، وطلب ارسال مطران لاصلاح بلاد الحبشة . وفى هذه الوثيقة يقول النجاشى انه ليس مثل والده فى عدائه للمسلمين « ... واننى احفظ المسلمين فى جميع مملكتى ومولانا يحفظ النصارى فى بلاده حتى نصير مشورة واحدة ، ويدا واحدة ، وتتواصل الرسل من الجهتين ... » .

وكان الكتاب الثانى مرسلا الى البطريرك « يؤنس السابع » بطريرك الأقباط الأرثوذكس وهذه الوثيقة(٥٣) . يعتذر النجاشى فيها عن أن والده أحضر مطارنة من السوريان « ... وهؤلاء السريان المطارنة الذين عندنا من غير مصر بغضناهم وما حببناهم ، ولأجل محبتنا فى بطركية مصر ما خليناهم عندنا وطردناهم ، وما كانوا قعدوا عندنا الا بوالدنا لأنه ما كان عنده أحد من جهتـك ... » .

اما الكتاب الثالث ، فهو الرد الذى كان السلطان « الظاهر بيبرس » قد أرسله الى « يكونو أملاك » فى شهر ربيع الآخر سنة ٦٧٣ هـ .

وفى سنة ٧٢٦ هجرية وردت رسل النجاشى « عمدا صيون » الذى خاض حروبا متواصلة ضد مسلمى الحبشة تطلب من السلطان « الناصر محمد بن قلاون » اعادة فتح الكنائس ومعاملة المسيحيين بالحسنة ويهدد بانسطهاد المسلمين فى الحبشة وبتحويل مجرى نهر النيل لتجويع المصريين(٥٤) .

وعلى الرغم من ذلك ظلت الرسل والسفارات ترد الى القاهرة طوال عصر سلاطين المماليك ، فلدينا أنباء عن سفارة أرسلها النجاشى « يعقوب

---

(٥٢) ابن فضل الله العمرى ، التعريف ، ص ١٧٠ — ١٧٢ . نسخة خطاب صاحب الحبشة يجباصيون (صهيون) والملقب أيضا سلمون سليمان حكم (١٢٨٤ — ١٢٩٣ م) .
(٥٣) ابن فضل الله العمرى ، التعريف ، ص ١٧٢—١٧٣ .
(٥٤) المقريزى ، السلوك ، ج ٢ ، ص ٢٧٠ .

ابن داود بن سيف أرعد » سنة ٨٤١ هجرية تحمل كتابا منه ومعه هدية ما بين ذهب ، وزباد ، (وهو نوع من العطور التى اشتهرت بها الحبشة) ، وغير ذلك « ... فتضمن السلام والتودد والوصية بالنصارى وكنائسهم »(٥٥) . وفى سنة ٨٤٧ هـ جاءت رسل الحبشة بكتاب يتضمن التهديد بقطع النيل وطلب معاملة النصارى بالحسنى(٥٦) ، وفى سنة ٨٥٧ هـ وفدت رسل ملك الحبشة الى السلطان « جقمق » الذى استقبلهم على سرير المرض ثم توفى فاستقبلهم رسميا ابنه « المنصور عثمان »(٥٧) . وفى عهد السلطان الأشرف قايتباى وفدت سفارة أخرى الى مصر لنفس الغرض(٥٨) .

بعد ذلك انقطعت رسل الحبشة عن القدوم الى مصر لمدة تقرب من ست وثلاثين سنة ٨٨٦ — ٩٢٢ هجرية . وفى السنة الأخيرة وفدت سفارة حبشية ومعها وفد من الحجاج الأحباش فى طريقهم الى بيت المقدس . ويصف لنا المؤرخ ابن اياس آخر سفارة حبشية استقبلتها القاهرة فى عصر سلاطين المماليك فيقول ان السفارة ضمت خمسة من أمراء الحبشة « .. والباقى لبط ، فيهم من هو عريان الرأس ، وعلى رأسه شوشة بشعر ، وفيهم من فى أذنه حلق دهب قدر القرصة ، وفى أياديهم أساور دهب .. وكان مجموع ذلك الحبشة الذى حضر الى مصر نحو ستمائة انسان .. وكان صحبتهم البترك الكبير . .واصطفت جميع النصارى الذين فى مصر للفرجة عليهم ... »(٥٩).

ويبدو أن الهدية التى جلبوها معهم كانت ضئيلة القيمة بحيث وبخ السلطان من أحضرها وأحضر قوائم بهدايا ملوك الحبشة الى أسلافه من سلاطين المماليك . والراجح لدينا أن تدهور مكانة مصر العالمية وضعفها البادى كان وراء استهانة ملوك الأحباش بالسلاطين وهو ما انعكس على تفاهة الهدية التى كانت فى عرف السياسة فى ذلك الزمان عنوانا على التقدير والاحترام . كما انه يبدو أن اندماج ملوك الحبشة فى المشروعات الأوربية لحصار المسلمين كان وراء ذلك الموقف .. وتلك قصة أخرى .

---

(٥٥) المصدر نفسه ، ج ٤ ، ص ١٠٢٤ .
(٥٦) العينى ، عقد الجمان ، ج ٢٥ ، ص ٧٤٥ — ٧٤٦ (مخطوط).
(٥٧) ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، ج ١٦ ، ص ٣٣ .
(٥٨) ابن أياس ، بدائع الزهور ، ج ٥ ، ص ١٠ .
(٥٩) ابن أياس ، بدائع الزهور ، ج ٥ ، ص ١٠—١١ .

وهكذا لم يكن ملوك الحبشة الأقوياء قادرين على تجاهل ما كان يتعرض له المسيحيون فى مصر وبلاد الشام ، أحيانا ، من متاعب تحت حكم سلاطين المماليك . وقد سلك ملوك الحبشة طرقا أربع لصالح الأقباط ، **أولها** : التهديد باغلاق منابع النيل الأزرق لمنع مياه الفيضان من الوصول الى مصر ، **وثانيها** : شن الحملات الانتقامية على مسلمى الحبشة ، **وثالثها** : ارسال السفارات الودية المحملة بالهدايا الى سلاطين المماليك ، **ورابعها** : محاولة التحالف مع القوى الأوربية ضد مصر . وبينما لم تثمر الطريقة الأولى والطريقة الأخيرة شيئا ، آتت اضطهادات مسلمى الحبشة بنتائج عكسية تماما ، على حين استطاعت السفارات والرسائل الودية تحقيق بعض النتائج الطيبة لصالح الأقبـــاط .

بقى الآن نقطة أخيرة فى هذه الدراسة ، وهى الاتصالات الحبشية مع بلدان أوربا بقصد العمل المشترك ضد مصر . ويبدو أن صـــعود الأسرة السليمانية على عرش الحبشة ، التى بدأت بحكم النجـــاشى يكونو أملاك (١٢٧٠ — ١٢٨٥ م) ، كان بداية لصحوة دينية وسياسية فى الحبشـــة ، فقد زاد نشاط المبشرين بين القبائل الوثنية فى الحبشة ، كما بدأ الهجـــوم الحبشى المنظم ضد امارات « الطراز الاسلامى » . ومن ناحية أخرى بدأ ملوك الحبشة يحاولون الاتصال بالقوى الصليبية العاملة فى البحر المتوسط لتطويق مصر من الشمال والجنوب . وربما كانت المشروعات الصليبية المتأخرة ، والتى نتجت عن نجاح المصريين فى القضاء على الوجود الصليبى فوق الأرض العربية فى فلسطين أواخر القرن الثالث عشر ، وراء تلك الروح العدوانية التى غلبت على سياسة الأحباش .

وفى كثير من أخبار الرحلات التى حفظها لنا الزمن ، قبل الحـــروب الصليبية وبعدها ، يتحدث الرحالة الأوروبيون عن أنهم قابلوا حجاجا من الأحباش فى الأرض المقدسة . كما أن المصادر التاريخية تخبرنا عن أن كثيرين من الأمراء الصليبيين قد دفنوا فى كنيسة الأحباش القريبة من الضريح المقدس(٦٠) . بيد أن هذا لم يكن شـــكل العلاقة الوحيـــدة بين الأوروبيين والأحباش فى ذلك الزمان . فقد شاعت فى أوربا فى القرن الرابع عشر فكرة

---

(60) Leo Hansberry, «Ethiopian Ambassadors». p. 90.

أن نجاشى الحبشة هو « برسترجون » الذى ذاعت حوله قصص خيالية كثيرة منها أنه يمكنه فتح بوابات مياه النيل لتفرق مصر . ولكن ما يلفت النظر هنا أن الأوروبيين لم يحاولوا قبل الحملة الصليبية السابعة ان يبذلوا أى جهد لاكتشاف مكان هذا الحليف المسيحى القوى(٦١) . وحتى نهاية الحروب الصليبية لم يكن هناك مبعوثون الى بلاد النوبة أو الحبشة التى كان الأوروبيون يعتقدون أن مملكة برسترجون فى احداهما أو فى الهند . وعندما عرفت أوربا أن ملك الحبشة المسيحى هو « برسترجون » ، اكتشفوا أنه ليس ثريا أو قويا كما صورته الأسطورة ، ولكنه مسيحى . وكان هذا كافيا بالنسبة لمشروعات البابوية .

ووفقا لوثيقة هامة من وثائق البابوية ، يتضح أن اثنى عشر من بابوات روما الذين جلسوا على عرش القديس بطرس فيما بين سنة ١١٥٩ م وسنة ١٤٢٤ م ، أرسلوا خطابات ملوك الحبشة خلال هذه الفترة . كما أن وثائق بابوية ورهبانية أخرى تخبرنا أن عددا كبيرا من الأوربيين سافروا فرادى ، أو ضمن بعثات دينية ، أو دبلوماسية ، أو عسكرية ، الى مملكة النوبة المسيحية ومملكة الحبشة فيما بين سنة ١٢٥٤ م وسنة ١٦٣٢ م . وقد أمضى بعضهم بقية عمره فى الحبشة ، على حين عاد الآخرون الى بلادهم ليقدموا انطباعاتهم من خلال الكلمة المكتوبة ، أو الحكايات الشفوية ، عن بلاد الحبشة البعيدة(٦٢) .

ففى سنة ١٢٧٥ م قام « يكونو أملاك » مؤسس الأسرة السليمانية بايفاد سفارة الى الامبراطور البيزنطى « ميخائيل الثامن باليولوجوس » ومع السفارة

---

(61) E. Denison Ross, «Prester Johs and the Empire of Ethiopia» in : Newton, Arthur Percival (ed.), Travel and travellers of the Middle Ages (London 1930). p. 180.

(62) Leo Hansberry, «Ethiopian Ambassadors», p. 90;

فى سنة ١٣١٦ أرسل البابا يوحنا الثانى والعشرون ثمانية من الرهبان الدومينيكان الى الحبشة ، وقامت احدى الرهبات بتأسيس دير للبنات ، واستطاع الرهبان أن يوطدوا علاقتهم بالأحباش — انظر : الشاطر بصيلى ، تاريخ وحضارات ، ص ١٠٨—١١٠ ،

Ross, «Prester John», pp. 192-193.

هدية فاخرة . وبعد ذلك بثلاثين سنة جاءت سفارة حبشية من حوالى ثلاثين فردا الى البابا « كليمنت الخامس » فى أفينون ووصلت سنة ١٣٠٨ م . وفى ١٤٠٢ م شهدت مدينة البندقية ضجة واثارة بسبب قدوم سفارة حبشية معها عدد من الفهود الافريقية على سبيل الهدية . كما حدث فى سنة ١٤٠٨ م أن قام الحجاج الأحباش بزيارة بولونا فى طريقهم الى روما بعد زيارة بيت المندس . وبعد ذلك بتسع عشرة سنة قام « الفونسو الخامس » ملك اراجون باستقبال اثنين من السفراء الأحباش فى بلاطه فى بلنسية بحضور المندوب البابوى الكاردينال « فويكس » الذى قدم تقريره عن الزيارة للبابا « مارتن السادس » . وفى ١٤٣١ م زارت روما سفارة حبشية استقبلها البابا « يوجين الرابع » استقبالا حافلا(٦٣) .

ويبدو أن الأمر لم يقف عند حد المشاورات ، اذ أن كتب التاريخ تخبرنا أن الهجوم الغادر الذى شنه ملك قبرص الصليبى « بطرس لوزينان » على الاسكندرية سنة ٧٦٧ هـ/١٣٦٥ م كان جزءا من خطة عامة اعدت على أساس هجوم قوات بطرس من الشمال وهجوم القوات الحبشية من الجنوب ، ولكن انسحاب الصليبيين السريع من الاسكندرية جعل ملك الحبشة يقرر العودة بعد أن خسر عددا كبيرا من رجاله بسبب وعورة الطريق(٦٤) . وعندما سمع اسحق الأول نبأ شن الحبشة بهزيمة مسيحيى قبرص وأسر ملكها على أيدى القوات المصرية سنة ٨٣٠ هـ دعا المسيحيين فى أوربا الى شن حملة صليبية شاملة من الشمال والجنوب ، كما كتب الى ملوك الفرنجة محرضا اياهم على استئصال المسلمين . وكان رسوله الى الغرب الأوربى تاجر مسلم هو « الخواجا نور الدين على التبريزى العجمى » الذى حمل رسالة ملك الحبشة الى ملوك الفرنج « ... عندما بلغه أخذ قبرس وأسر ملكها جينوس ، يحثهم فيه على القيام لازالة دين الاسلام ، وغزو المسلمين ، واقامة الملة العيسوية ونصرتها ، وأنه يسير فى بلاد الحبشة فى البر بعساكره ، وأن الفرنج تسير فى البحر بعساكرها ... » واتفق معه على كل التفصيلات حتى زى جنود الحملة . ولكن التاجر وقع فى قبضة السلطات المصرية أثناء

---

(63) Leo Hansberry, «Ethiopian Ambassadors», p. 90; Ross, «Prester John» , p. 193.

(٦٤) سعيد عاشور ، « بعض أضواء جديدة » ، ص ٣١ .

عودته فى ميناء الاسكندرية ، ومعه راهبان حبشيان ، وأعدم سنة ٨٣٢ هـ (١٤٢٩ م)(٦٥) .

وما تزال توجد بعض السجلات والذكريات عن الدور الذى لعبه السفراء الأحباش فى مشروع آخر اكثر طموحا ، وأقل نجاحا ، فى تاريخ التكتلات المسيحية ضد المسلمين فى العصور الوسطى. وهو مجمع « فلورنسا الكونى » الذى دعا اليه ابابا يوجين الرابع (٣١ — ١٤٤٧ م) على أمل أن يجد وسيلة يمكن بها تجميع المسيحيين فى اتحاد كبير بقيادة الكنيسة الرومانية الكاثوليكية يقوم بحملة موحدة ضد مسلمى الشرق . وقد اجتمع هذا المجمع أولا فى فرارا ، ثم فى فلورنسا واخيرا فى روما فيما بين سنة ١٤٣٨ وسنة ١٤٤٢ م . وكان البابا متأثرا مثل سائر الأوربيين آنذاك بما يشاع عن القوة العسكرية الفائقة لملكة برسترجون ولذلك كان شغوفا بمشاركة الأحباش فى هذا الاتحاد المسيحى الكبير(٦٦) .

وفى اطار ذلك المشروع أرسل البابا واحدا من الرهبان الفرنسسكان هو « البرتو دى سارتيانو » الى المسيحيين فى المنطقة العربية يدعوهم الى المشاركة فى مشروع الاتحاد المسيحى . ومن بين الخطابات التى حملها « سارتيانو » خطاب الى « حنا الحادى عشر » بطريرك الأقباط فى مصر ، و« برسترجون » ملك الحبشة . ولم يتحمس البطريرك القبطى للمشروع البابوى . وطلب « سارتيانو » من السلطان « الأشرف برسباى » الاذن بالسفر الى الحبشة ، ولكن السلطان الذى كان قد أسر ملك قبرص قبل سنوات قليلة وجعله يمشى عارى الرأس مقيدا بالسلاسل خلال شوارع القاهرة ويقبل الأرض بين قدميه ، رفض طلب الراهب الفرنسسكانى الذى سافر الى القدس حيث ناقش مشروع الاتحاد مع « نيقوميدوس » رئيس دير الأحباش فى المدينة المقدسة .

وفى سنة ١٤٤١ م خرج الوفد الحبشى لحضور المجمع الكنسى « الكونى » ، وكان الوفد يضم اثنى عشر راهبا حبشيا ومرشدهم الذى كان

---

(٦٥) المقريزى ، السلوك ، جـ ٤ ، ص ٧٩٥ — ٧٩٧ ، ابن تغرى بردى ، النجوم ، جـ١٤ ، ص ٣٢٤—٣٢٦ .

(66) Leo Hansberry, « Ethiopian Ambessadors», p. 91.

تاجرا ايطاليا عاش عدة سنوات فى المنطقة العربية . ووصلت الأنباء الى ايطاليا تسبق الوفد الحبشى . وكان البابا يأمل فى انضمام الأحباش الى الاتحاد ضد المسلمين(٦٧) . ولذلك أمر بأن ينقل مكان المجمع الى روما حتى تكون « ... السفارة العظيمة التى أرسلها امبراطور الحبشة العظيم السامى ... » فى رحاب المدينة الخالدة روما « ... عاصمة العالم المسيحى كله ... » بدلا من عقد المجمع فى مدينة صغيرة مثل فلورنسا . ومن المؤكد أن البابا والمشاركين فى المجمع الكونى قد استقبلوا الوفد الحبشى بأذرع مفتوحة ، وأحاطوهم بكافة مظاهر التكريم . ولكن الأمر كله انتهى الى نتيجة سلبية تماما . وفى سنة ١٤٤٨ م جاءت الأخبار الى شارل السابع ملك فرنسا عن انذار ملك الحبشة لمصر بالحرب وتحويل مجرى النيل . وفى منتصف القرن الخامس عشر أخذ « ألفونس الخامس » ملك أراجون يفكر فى احياء مشروع غزو مصر من الجنوب وأرسل سفارة لهذا الغرض الى الحبشة(٦٨) .

وفى سنة ١٤٨٤ م قام « جون الثانى » ملك البرتغال بخطوة عملية لاقامة نوع من الاتصال المباشر مع الحبشة ، فأرسل سفارة يرأسها « بارتلميو دياز » الذى سار بحذاء شاطىء أفريقيا لبحث امكانية الوصول الى الحبشة عن طريق البحر . كما رتب لارسال سفارتين أخريين عن طريق البحر المتوسط ومصر . وكانت البعثة البرية من اثنين هما « بطرس دى كوفلهام » و« الفونسو دى بافيا » . وبفضل اجادة الاثنين للغة العربية تمكنا من دخول ميناء الاسكندرية باعتبارهما من المغاربة . وبعد عدة تنقلات مات « دى بافيا » ووصل « كوفلهام » الى الحبشة واستحوذ على ثقة الملكة هيلانة الوصية على العرش ثم ابنها الملك داود حين بلغ سن الرشد وبقى كوفلهام بالحبشة واتخذها وطنا ثانيا له بعد أن تزوج سيدة حبشية ثرية وأنجب منها عدة أبناء(٦٩) .

---

(67) Ibid, pp. 91-2.

(٦٨) Ibid, p. 92. ، الشاطر بصيلى ، تاريخ وحضارات ، ص ١٣٤ وما بعدها .

(69) Ziada, Foreign Relations, pp. 287—88; Leo Hansberry, «Ethiopian Ambessadors», p. 93.

وأثناء اقامته بالحبشة دون « كوفلهام » الكثير من المعلومات القيمة عن الحبشة والنشاط التجارى فى البحر الأحمر على طول شاطىء أفريقيا الشرقى، ثم أرسل يستحث الملك البرتغالى على اكتشاف هذا الطريق ، وربما كانت هذه المعلومات من العوامل التى أفرزت رحلة « فاسكو دا جاما » الشهيرة ١٤٩٨ — ١٤٩٩ م بمساعدة الملاح المسلم « أحمد بن ماجد »(٧٠) .

وفى سنة ١٥٠٩ م قامت الملكة هيلانة — أثناء وصايتها على ابنها داود الثانى — بارسال سفارة الى الملك عمانويل ملك البرتغال بسبب خوفها من تقدم العثمانيين فى المنطقة العربية . وكانت تعتقد أن البرتغال يمكن أن يمدوا الأحباش بالأسلحة النارية التى يستخدمها العثمانيون(٧١) .

وقد أدى سقوط مصر تحت السيطرة العثمانية سنة ١٥١٧ م الى أن يرث العثمانيون حكم مصر من سلاطين المماليك ، ويرثون بالتالى مسئولية ادارة الصراع ضد القوى الأوربية والأحباش فى البحر الأحمر ، وبذلك انطوت صفحة العلاقات بين مصر والحبشة فى تلك الفترة التاريخية لتبدأ صفحة جديدة أهم ما يميزها هو فقدان مصر لاستقلالها ودورها ، وفقدان البحر الأحمر لقيمته التجارية والعسكرية بشكل مؤقت .

هكذا تداخلت خيوط العلاقة بين مصر والحبشة فى عصر سلاطين المماليك بين مجالات الاقتصاد والدين والسياسة ، ولكن هذا لم يمنع وصول المؤثرات الحضارية المصرية الى الحبشة المسيحية والمسلمة ، سواء عن طريق الكتب أو الفقهاء ، أو الحج والتعليم فى مدارس مصر بالنسبة للمسلمين ، أو المطارنة ورجال الدين وحجاج بيت المقدس والرهبان الأحباش بالنسبة للمسيحيين . كما ساهم عدد من المصريين فى تطوير التنظيمات الادارية والمالية والعسكرية فى مملكة الحبشة المسيحية .

---

(٧٠) يحيى بن الحسين ، غاية الأمانى ، ج ٢ ، ص ٦٣٠—٦٣٢ ، جورج حورانى ، العربى والملاحة فى المحيط الهندى ، ص ٢٣٧ .

(71) Leo Hansberry, op. cit., p. 94.

ومن المهم أن نلاحظ أن معلومات المصريين عن الحبشة فى عصر المماليك كانت وافرة بالقدر الذى يكشف عن مدى اهتمام مصر بعلاقاتها مع الحبشة . فقد حفلت كتب « ابن فضل الله العمرى » ، و« القلقشندى » ، و«المقريزى» و« النويرى » و« ابن عبد الظاهر » وغيرهم بالمعلومات الهامة عن الحبشة ، من حيث الموقع الجغرافى والمساحة والأقاليم ، فضلا عن أنواع الطيور والحيوان والنبات الموجودة فى تلك البلاد ، والمعادن وانواع العملات ، والأسعار ، الى جانب أزياء الأحباش وأسلحتهم ونظمهم الادارية والمالية .

opeikan.com